مجلة اللغة العربية والعلوم الإسلامية المجلد (٢) العدد(٨)- ديسمبر ٢٠٢٣م
الترقيم الدولي للنسخة المطبوعة: x ١٤٥-٢٨١٢ الترقيم الدولي للنسخة الإلكترونية: ٢٨١٢- ٥٤٢٨
الموقع الإلكتروني: https://jlais.journals.ekb.eng

الطبيعة وتحولات الحِجَاج السَّردي في مقامات السَّرَقُسْطِي (ت٥٣٨هـ)

المقامة "البحرية" نموذجاً

د. محمد هاشم عبد السلام
أستاذ مساعد بكلية دار العلوم- جامعة الفيوم

Journal of Arabic Language and Islamic Science Vol (2) Iss (٨)- Des2023
Printed ISSN:2812-541x On Line ISSN:2812-5428
Website: https://jlais.journals.ekb.eg/

الطبيعة وتحولات الحِجَاج السَّردي في مقامات السَّرَقُسْطِي (ت٥٣٨هـ)
المقامة "البحرية" نموذجًا

د. محمد هاشم عبد السلام

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم– جامعة الفيوم

ملخص

السَّرَقُسْطِي (ت ٥٣٨هـ) أحد الأدباء الذين عاشوا في فترة حكم ملوك الطوائف والمرابطين في العصر الأندلسي، وقد شُهر بمقاماته التي بلغت خمسين مقامة، وفيها استلهم هذا الكاتب – كغيره من الأدباء الأندلسيين –الطبيعة، وكان من مظاهر استدعائه لها أن اتخذ بعض عناصرها موضوعًا لبعض هذه المقامات؛ كما في المقامة البحرية التي عُقدت لها هذه الدراسة، وقد دار حديثه فيها – وهو ما يتضح من عنوانها – حول البحر؛ إذ أفاد من طبيعته وتقلب أحواله في جعل بطل هذه المقامة يتبنى منه موقفين متناقضين، يخدمان حيلته التي اصطنعها لتحقيق مآربه.

لقد تباين موقف بطل المقامة البحرية من البحر؛ إذ خوف مستمعيه أولًا من ركوبه، وصدفهم عن السفر خلاله، ثم لما فطن فريق منهم من البحارة إلى مكره واحتياله؛ بادروه بالأموال واللهى؛ وعلى إثر هذا عدل في اليوم التالي عن موقفه الأول، ونجح بطلاوة حديثه وفاعلية حُججه في أن يقنع هؤلاء المستمعين أنفسهم بجدوى ركوب البحر، ولما كان هذا التباين قد احتاج من هذا البطل أن يستفرغ جهده في التبرير لتحوله والحِجَاج عنه في الحالين، فقد جاءت فكرة هذا البحث الذي درس تقنيات هذا الحِجَاج، ورصد كيف توسل – لإحداث التأثير المطلوب – بعناصر السرد أهم العناصر التكوينية في هذه المقامة؛ ولإماطة اللثام عن طبيعة هذه الممازجة أو التآزر بينهما بدأت هذه الدراسة بتمهيد عرض – بشكل موجز – لموضوعين؛ الأول: الطبيعة في الأدب الأندلسي، والثاني: الحِجَاج وبنية المقامة، ثم تناول البحث بعد ذلك أهم العناصر أو التقنيات الفاعلة في الموضوع، وهي: الاستهلال، والحيلة وجدلية الخفاء

والتجلي، وحجة السُّلطة، والحجة البراغماتية، وحجة العاطفة، وحجة التبادل، أعقب ذلك خاتمة بأهم النتائج، ثم ثبت بأهم المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الطبيعة– تحولات الحِجَاج السَّردي– مقامات السَّرَقُسْطِي.

التمهيد

(أ) الطبيعة في الأدب الأندلسي

انمازت الأندلس بطبيعتها الخلابة؛ فهي "جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع"(١)، وهو ما جعل شعراء هذا البلد يتمثلون عناصر هذه الطبيعة الصامتة والمتحركة، ويسكبون عليها – في الفرح والطرح – من أخيلتهم ومشاعرهم ما يشخصها، ويبث في بعضها الحياة، ويملؤها بالحركة والنشاط، ووصفُ هؤلاء الشعراء للطبيعة الأندلسية لا يظهر عندهم بوصفه غرضًا مستقلًا إلا نادرًا، إذ الغالب أن يكون متصلًا بموضوعات أخرى، لا سيما الغزل والخمر(٢)، وحال الكتاب الأندلسيين – ومنهم من كان شاعرًا أيضًا – في استلهام الطبيعة الأندلسية كحال الشعراء؛ فقد شُغفوا بجمالها، ولم نجد لها في النثر الأندلسي وصفًا مستقلًا، وأكثر ما يكون منه في هذا الفن إنما يأتي في سياق أغراض أخرى، لعل أشهرها وصف مجالس اللهو(٣).

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ١/ ٢٠٥.

(٢) ينظر: جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٦م، ص١٣٢، ١٣٣، وشوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢٩٣.

(٣) ينظر: علي بن محمد: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م، ١/٤١٠.

والسَّرَقُسْطِي[١] أحد الأدباء الأندلسيين الذين استدعوا الطبيعة في مقاماته، وتوسع في نطاق استعمالها؛ إذ اتخذ من بعض عناصرها موضوعًا رئيسًا لبعض هذه المقامات؛ كما في المقامة النجومية والفرسية والأسدية والحمامية ومقامة الدب والمقامة العنقاوية والمقامة البحرية[٢]، وهو في مثل هذه المقامات لا يقف عند حدود الوصف المباشر للطبيعة، ولا يتخذ منها معادلًا موضوعيًّا، كما لا يجعل غايته فيها إبراز البراعة اللغوية، وتفتيق صور من المحسنات البديعية، وإنما يستثمر الحديث عن أحد عناصر الطبيعة في الاحتيال على جمهوره وخداعهم؛ لإدراك شأوه وطلابه من الأموال والعطايا؛ وهذا الكاتب حريص على أن يكون هذا النوع من المقامات مكتنزًا بتقنيات أو وسائل هامة تضاف إلى العناصر التكوينية فيها؛ فتمتزج بها وتعملان جنبًا إلى جنب للوصول لما يتغياه؛ من ذلك تعويله على الحِجَاج في المقامة البحرية مناط هذه الدراسة.

---

(١) هو أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني السَّرَقُسْطِي يعرف بابن الأشتركوني، كان لُغويًا أديبًا شاعرًا، وله المقامات اللزومية، التي بلغ عددها خمسين مقامة، من مشايخه: أبو علي الصّدفي، وأبو الحسن بن الأخضر، وأبو عبد الله بن سليمان، المعروف بابن أخت غانم، وأبو الحسن بن الباذش وغيرهم، وقد أخذ عنه القاضي أبو العباس بن مضاء، وروى عنه أبو جعفر بن يحيى الكتامي، لم تخبر كتب التراجم بسنة مولده، وإنما ذكرت أنه توفي بقرطبة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. ينظر في ترجمته: ابن بشكوال: الصلة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ٨٥٣/١، لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م، ٣٧٠/٢، السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٩٦٤م، ٢٧٩/١، وشوقي ضيف: عصر الدول والإمارات (الأندلس)، ص٥٢٢.

(٢) ينظر في نص المقامة البحرية: السَّرَقُسْطِي: المقامات اللزومية، تحقيق: حسن الوراكلي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٦٥: ٧٢.

(ب) الحِجَاج وبنية المقامة

ضيقت بعض المناهج النقدية – خاصة البنيوية – واسعًا، فأغلقت النص على ذاته، وعُني بعضها بمقاربته من منظور جمالي بلاغي، ومع تطور الدراسات اللسانية أخذت الممارسات النقدية تلج إليه بوصفه "خطابًا صيغ على نحو يؤدي وظيفة تداولية وتوصيل رسالة إلى متلقٍ مستعد لتقبلها والاستجابة العملية لمقصدية صاحبها"(١)، وهذا المنظور الوظيفي الذي يُعنى بدراسة أفعال الكلام، ويراعي السياق الخارجي للنص، ويركز على ما يحدثه في المتلقي من آثار، تصل إلى حد الإقناع وتوجيه السلوك، هذا المنظور يلتقي مع مراد الحِجَاج(٢)، الذي يُعرف بأنه "فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيًّا في إنشاء معرفة عملية، إنشاء موجهًا بقدر الحاجة، وهو أيضًا جدلي لأن هدفه إقناعي

(١) محمد مشبال: البلاغة والسرد جدل التصوير والحِجَاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ٢٠١٠م، ص١٣.

(٢) بات من المعروف أن الحِجَاج قد اكتسب أهمية خاصة على يد كلٍّ من برلمان وتيتيكا، وذلك من خلال كتابهما المشترك: "مصنف في الحِجَاج" والصادر سنة ١٩٥٨م، وعن دورهما في تقديم هذا المنهج، والكشف عن خصوصيته يقول الدكتور: عبد الله صولة: "فالباحثان قد عملا من ناحية أولى على تخليص الحِجَاج من التهمة اللائطة بأصل نسبه وهو الخطابة، وهذه التهمة هي تهمة المغالطة والمناورة والتلاعب بعواطف الجمهور وبعقله أيضًا، ودفعه دفعًا إلى القبول باعتباطية الأحكام ولا معقوليتها. وقد عمل الباحثان من ناحية ثانية على تخليص الحِجَاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب. فالحِجَاج عندهما معقولية وحرية. وهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة" الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب: أهم نظريات الحِجَاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب منوبة، ص٢٩٨.

قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"[١].

وصِفَتَا التداولية والجدلية اللتان تطبعان الحِجَاج تجعلان إساغة الأجناس الأدبية له مرهونة بما يتقوم به كل منها، وبما يؤثث بنيتها وتفرضه خواصها النوعية والأسلوبية[٢]؛ ولهذا كانت بنية المقامة من أكثر البنى استيعابًا لوسائل الإقناع وأداءً للوظائف التواصلية؛ وذلك لسببين هامين؛ الأول: أن المقامة تتماز باعتمادها على فكرة التخفي والخداع والغموض، والحِجَاج "يجد في الغموض أرضية خصبة؛ لأن الحقيقة عندها لن تكون واحدة أو لا يمكن الحسم في شأنها فيكون الالتجاء إلى التأثير والإقناع وتبرير المواقف بديلًا عن برهنة شكلية صارمة تميز بين الحق والباطل انطلاقًا من مقدمات صادقة ضرورية"[٣]، والثاني: أن الشكل القصصي الذي ينتحيه الكتاب في المقامة[٤] يفيد في وصول الحِجَاج إلى مرامه وغاياته؛ إذ إن ما يقوم بين العناصر

---

(١) طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٠، ص٦٥.

(٢) فطن حازم القرطاجني إلى هذا الأمر منذ زمن بعيد، عندما تكلم عن قدرة الشعر المحدودة على استيعاب وسائل الإقناع قائلًا: "التخييل هو قوام المعاني الشعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية. واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية في الموضع بعد الموضع، وإنما ساغ لكليهما أن يستعمل يسيرًا فيما تتقوم به الأخرى" منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ص٣٦١.

(٣) سامية الدريدي: الحِجَاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠١١م، ص٦٣.

(٤) ذكر الدكتور: شوقي ضيف أن بديع الزمان الهمذاني هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء، وهي جميعها تصور أحاديث تلقى في جماعات، تصاغ في شكل قصص قصيرة، يتأنق كاتبها في ألفاظها وأساليبها، ويتخذ لها راويًا واحدًا وبطلًا واحدًا يظهر في شكل أديب شحاذ، لا يزال يروع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم. ينظر: المقامة، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص٨، وكذلك ألمح الدكتور: موسى سليمان إلى هذه السمة القصصية في المقامة، وذلك في تعريفه لها قائلًا: "المقامات أحاديث أدبية

السردية من علاقات سببية ومنطقية يضفي على الكلام نوعًا من المصداقية، كما أن تعدد هذه العناصر واختلاف وظائفها مما يمنح فرصة تنويع الحجج وإقامتها على الوجه الأمثل؛ وآية ذلك أن المقامة بما تحويه من شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية تمنح الكاتب فرصة استعمال سلطتها، وأن يُجري بينها حوارًا يسمح بتبادل الآراء وطرح الأدلة والرد عليها، كذلك فإن الحكي المقامي قد ينضوي على زمان ومكان يوهمان بحقيقة الحدث، خاصة مع تحديدهما ووجود الإشارات الدالة عليهما، والجمهور أيضًا من العناصر السردية التي تزيد من نجاعة الحِجَاج في المقامة؛ إذ ألفينا البطل في المقامة البحرية قد توجه إليه بالحديث مباشرة، ورام تغيير سلوكه وإقناعه بالشيء ونقيضه، ثم كان لموقف هذا الجمهور الخاص – وليس الكوني – ولطبيعة ثقافته أثر واضح في تحريك السرد وتنويع الحجج واجتباء بعضها دون الآخر، وبهذا يتبين أن الحِجَاج والسرد في المقامة البحرية تقنيتان متلازمتان متداخلتان، لا يمكن دراسة أحدهما بمعزل عن الآخر.

أولًا: الاستهلال

يعد الاستهلال من العتبات الهامة في النص الأدبي، وهو متنزل منه منزلة الرأس من الجسد، وهذه الصلة بينهما ليست فقط صلة بنيوية، تتأطر بروابط لغوية سطحية، ولكنها أيضًا صلة دلالية وشعورية؛ ذلك أن "النفس تكون متطلعة لما يستفتح لها الكلام به، فهي تنبسط لاستقبالها الحسن أولًا، وتنقبض لاستقبالها القبيح أولًا أيضًا"(١)، ولهذا تعين على الأديب الاعتناء بمفتتح كلامه والإحسان فيه؛ ليحصل هذا الانبساط من قِبَل المتلقي، ويكون ذلك حافزًا وداعيًا له إلى الاستماع ومتابعة القراءة والولوج إلى المتن.

لغوية يلقيها راوية من الرواة في جماعة من الناس، بقالب قصصي يقصد فيه إلى التسلية والتشويق، لا إلى تأليف القصة والتحليل" الأدب القصصي عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٤، ١٩٦٩م، ص٢٠٩.

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ص٢٨٢.

والاستهلال في المقامة البحرية عنصر وظيفي فاعل في بنيتها الحكائية والتداولية؛ كونه يفتح مجال القص، وفي رحمه تخلقت عناصر سردية هامة، استمر حضورها وتأثيرها في الأحداث اللاحقة، وفيه أيضًا – بوساطة هذه العناصر السردية – قصد الكاتب إلى الإسناد الخبري، وأودعه بعض الحجج الجاهزة، واختار له نسقًا موسيقيًّا، اطرد في جميع أجزاء النص، كما انفتح فيه على شيء من المشتركات النفسية؛ فأسهم هذا كله في الإيهام بالواقعية، وحمل المخاطبين على الاتصال النفسي ببعض شخصيات القصة واستقبال خطابهم بالقبول، وقد جاء في هذا الاستهلال:

"**حَدَّثَ المنذرُ بن حُمامٍ، قالَ حَدَّثَ السَّائبُ بنُ تَمَّامٍ، قال: ما زلتُ أركبُ الدَّهرَ حالًا بعد حالٍ، من خِصْبٍ وإمْحَالٍ، وحَلٍّ وتَرْحَالٍ، أَتَتبَّعُ الرَّزقَ وأَسْتَثيرُهُ، فيَأْبَى عليَّ قَلِيلُهُ وكَثيرُهُ، أُقَارِبُهُ فيُباعِدُ، وأُطالِبُهُ فلا يُساعِدُ، فاسْتَخَرْتُ اللهَ تَعالَى على رُكوبِ البِحَارِ، وتَرْكِ المَهَامِهِ والصَّحَارِي، وقلتُ: لعلَّ ذلكَ أَكْثرُ جَدْوَى، وأَقَلُّ عَدْوَى، وأَجْدَى تَصَرُّفًا، وأَنْدَى تَحَرُّفًا، وقديمًا سمعتُ المَثَلَ به جاريًا، ورأيتُ الجَوادَ لهُ مُجَاريًا، وقد قيل: "جَاوِرْ مَلِكًا أو بَحْرًا"، وصِدْقُ المَثَلِ أَجْدَرُ وأَحْرَى، فَأَظَلَّنِي مِنْ ذَلِكَ الرَّأي ما أَظَلَّ، وحُرِمْتُ الْمَنسَمَ الدَّامِي والأَظَلَّ، فسِرْتُ إلى مَرْفَأِ الشِّحْرِ وقد أَزْمَعْتُ عَلَى رُكُوبِ ذَلِكَ الْبَحْرِ، إذ سَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ: مَنْ يُصْغِ إِلَيَّ قليلاً، يَغْنَمْ مِنْ إِرْشَادِي جَلِيلاً، أَشْحَذْ مِنْ فِرِنْدِهِ، وأُخْبِرُهُ عَمَّا خَفِي عَلَيْهِ من صِيْنِهِ وهِنْدِهِ**".

أنجع وسائل الإقناع هو هذا الإسناد الذي تصدر الكلام في الاستهلال السابق، وقد زادت فاعليته بتعيين راويي القصة: المنذر بن حمام، والسائب بن تمام، وعقب هذا التعيين جعل الكاتبُ راويته الأصلي يعلن عن كدّه وسعيه الدؤوب وتحمله مشاق السفر لطلب الرزق، وبعد هذا التصريح دلف إلى تخصيص وسيلة هذا السفر أو الترحال وهي البحر، مختارًا له على الضرب في الأرض وسلوك البر، وبالنظر إلى موضوع المقامة البحرية الرئيسي نلفاه مخصصًا للحجاج والمفاضلة بين هذين العنصرين البحر والبر، وكأن ما أُجمل في مفتتحها فُصِّل في متنها، وفي هذا دلالة قاطعة على أن هذا المفتتح لم يرهص فقط أو يلمع إلى موضوع هذه المقامة، ولكنه كان شديد الالتحام والتماهي معه.

هذا وقد استبق الكاتب في هذا الاستهلال فاستعمل بعض الحجج الجاهزة غير الصناعية في الانتصار للبحر دون البر، أعني توظيفه للمثل في قوله: "**جَاوِزْ مَلِكًا أو بَحْرًا**"(١)، وهو قبل أن يتناص معه قد وطَّأ له، بإعلانه عن جنس هذا الذي نقله في نصه، مستندًا – وهو ما صرح به أيضًا – إلى ما له في الوعي الجمعي من مصداقية وقوة حضور، كذلك أطلق هذا الكاتب في استهلاله بعض العبارات التي حاول بوساطتها أن يستميل المتلقي من جهة العاطفة والنزعة الدينية؛ مثل قوله: "**فاسْتَخَرْتُ اللهَ تَعالَى**"، وهي توحي بشدة تعلق صاحبها بخالقه، وارتكانه إليه في جميع الأمور التي يزمع عملها؛ وفي هذا ما يمنح هذا الشخص سلطة دينية تحمل على تصديقه والإذعان لقوله.

قدَّم السائب – إذًا – في هذا الاستهلال بعض المسوغات والحجج الحافزة له على ركوب البحر، ثم رام بعد ذلك تعزيز قناعات المتلقي بما صح عزمه عليه؛ فحدد المكان الذي قصده لهذه الغاية، وهو مرفأ (الشِّحْر) وهو "صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن بين عدن وعمان"(٢).

جدير بالذكر أن عملية الإقناع لا تعتمد على الحجج العقلية وحدها، بل على أساليب الإمتاع أيضًا، حتى إن "ما ينشأ في الخطاب من تناغم وإيقاع وغير ذلك من الظواهر الشكلية المحضة يمكن أن يكون له تأثير حجاجي من خلال ما يتولد عنه من إعجاب ومرح وانبساط وحماس لدى جمهور السامعين"(٣)، والسَّرَقُسْطِي ممن عُرفوا باستعمالهم مثل هذه الظواهر الشكلية، وكان أبرز وسائلها لديه هو لزوم ما لا يلزم،

---

(١) الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ٣٠٢/١.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ٣٢٧/٣.

(٣) الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣١٧.

ومعناه "أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفًا واحدًا"[١]، وعن هذا الاتفاق ينشأ السجع بين الكلمات، هذا السجع الذي لم يأتِ لدى هذا الكاتب عرضًا، ولكنه مطرد لديه "لا تخلو منه مقامة ولا فقرة، ولم يعتمد فيه صاحبه الازدواج فحسب، بل نوع البنية من مجموعة من المقامات إلى مجموعة أخرى، ونوع القوافي طبعًا، فكان من مقاماته المزدوجة والمثلثة والموحدة السجعة"[٢]، وفي هذا الاستهلال ازدوجت الفواصل وتنوعت حروفها، إلا في واحدة جاءت مثلثة في الكلمات (حال، وإمحال، وترحال)، كما يلاحظ أيضًا أن لزوم ما لا يلزم امتد وولَّد جناسًا بين مقاطع الجمل، كما في الكلمات الثلاث السابقة، وكما بين الكلمتين (جدوى، وعدوى) والكلمتين (تصرفًا، وتحرفًا) والكلمتين (جاريًا، ومجاريًا) والكلمتين (بحرًا، وبرًّا).

ثانيًا: الحيلة وجدلية الخفاء والتجلي

لم يتزيا أبو حبيب السدوسي بطل المقامة البحرية بأسمال معينة، تُخفي هُويته، كما لم يتخذ من بعض الوسائل المادية الأخرى قناعًا يتستر وراءه، ولكنه احتال فيها معتمدًا على براعته الأسلوبية وقدرته على الترهيب من أحد الأمكنة وتصويره مكانًا متشظيًّا طاردًا، ثم التحول بعد ذلك إلى النقيض بترغيبه في هذا المكان نفسه وتحسين صورته وذكر منافع جمة له، وقد ساعد هذا التحول المفارِق على إحكام حبكة هذه المقامة، وأثر تأثيرًا واضحًا على البناء الدرامي لشخصية بطلها؛ إذ ظل متخفيًا في موقفه الأول حال الترهيب، ثم أميط اللثام عنه بشكل جزئي حال الترغيب.

وبيان ذلك أن الراوي قد أعلن في نهاية استهلال المقامة البحرية أنه قد أزمع – بعد أن وصل مرفأ الشحر – على ركوب البحر طلبًا للرزق، وهناك سمع رجلًا – عُمّي عليه أمره – ينادي في الناس، مخوفًا إياهم من ركوب هذا البحر، وقد فت كلامه في

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٨١/١.

(٢) محمد الهادي الطرابلسي: مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطي، مجلة حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب بجامعة تونس، ع٢٨، ١٩٨٨م، ص١٢٠.

عضدهم، ونجح بطلاوة حديثه في أن يلفتهم عما كانوا قد عزموا عليه، وقد عبر الراوي عن هذا النجاح بقوله: "**فكُلٌّ جَذَّ حَبْلَ إِزْمَاعِهِ، وبَتَّ أَوَاصرَ أَطْمَاعِهِ، وقَالَ: لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ رَاشِدٍ، وحُيِّيتَ من مُنْشِدٍ وناشدٍ، لَقَدْ صَرَفْتَ الْعَزَمَاتِ، وحَذَّرتَ الأَزَماتِ**".

ولأن الراوي في هذه المقامة لم يكن راويًا عليمًا مطلعًا على دواخل النفوس، وإنما هو راوٍ مشارك يتساوى في العلم مع المخاطبين، لأنه كذلك فإنه لم يفطن إلى حيلة البطل، ومن ثَمَّ استأنف الكاتب السرد، وعمل على تنامي الأحداث وتصاعدها؛ بغية الكشف عن غاية هذا البطل، وقد تسنى له هذا بأن جعل بعض الشخصيات الثانوية من أصحاب السفن يتنبهون لمأربه وحيلته، وقد أخبر الراوي عن ذلك قائلًا: "**فاكْتَنَفَهُ رَجُلٌ أَدِمُ البَشَرَةِ في عِشْرَةٍ مِن رَهْطِهِ أو عَشَرَةٍ، وجَعَلَ يَقُولُ لَهُ: مَا شَأْنُكَ ومَا أَمْرُكَ، ولِمَ غِنَاؤكَ وزَمْرُكَ؟ بَاعَدْتَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا، وأَغْدَفْتَ الْقِنَاعَ دونَ أَسْفَارِنَا، هَلْ لَكَ رغبةٌ فِي مَالٍ أو حَالٍ؟ وهَلْ أَخَذْتَ فى حَقِيقةٍ أَوْ مُحَالٍ؟ فَقَدْ أَخَالَ بَرْقُكَ الخَلُوبُ، وفُتِنَتْ بسِحْرِكَ الْقُلُوبُ، عِندَنَا مَطْلَبُكَ، وفِي ذِمَّتِنَا دَرُّكَ وحَلَبُكَ**".

كان ظهور هذا الرجل أدم البشرة وحديثه مع السدوسي إيذانًا بتحول جذري في موقفه من البحر، إذ سرعان ما تلقف ما عُرض عليه بالقبول، وأعلن في مكاشفة تامة عن طبيعة هذه المقايضة قائلًا: "**أَمَا وقَدْ فَهِمْتُمُ الْغَرَضَ، ومَيَّزْتُمُ الْجَوْهَرَ والْعَرَضَ، فعلىَّ أَنْ أُقِيمَ الْمَائِلَ، وأُعِيدَ الزَّائلَ، وأَرْأَبَ الثَّلْمَ، وآسُو الكَلْمَ، وأَنْ أُرْسِلَ الْعِقَالَ، وأَصْرِفَ الْمَقَالَ، وأَنْ أَبْعَثَ الْهِمَّةَ والْعَزِيمَةَ، وأَنْ أَرُدَّ تِلْكَ الْجَوْلَةَ والْهَزِيمَةَ، وأَنْ أُنفِقَ مِنْ سُوقِكَ مَا كَسَدَ، وأُصلِحَ مِنْ أَمْرِكَ مَا فَسَد، حَتَّى يَنْتَشِرَ شِرَاعُكَ، ويَطُولَ في السُّفَارِ بَاعُكَ وذِرَاعُكَ**".

وبعد هذا الذي قطعه السدوسي على نفسه بادره بعض البحارة بالدراهم والثياب، ولكنهم مع هذا أبدوا له تخوفهم من أن يغدر ويحنث بوعده، لا سيما وأنهم يجهلون هويته وحقيقة شخصيته، وهنا أجرى الكاتب على لسانه وعلى لسان بعض الشخصيات الثانوية من الحجج ما يبدد مخاوفهم ويطمئن قلوبهم، وكان بإمكان الكاتب أن ينهي المقامة عند هذا الحد؛ إذ لا يضيره فنيًّا أن يسم بطله بسمة الخداع وييسر له طريقًا للهرب بما ظفر به من اللهى، وهذا من آكد الأدوار التي تناط به، لكنه آثر أن تمتد

الحكاية، وتتعمق المفارقة؛ ليكسب مقامته – بخلاف غايتي الإمتاع والتعليم – بعدًا تأويليًّا، ينفذ المتلقي إلى دلالاته الواقعية باستقراء أنساقها المضمرة، ولعل هذا ما لفت السَّرَقُسْطِي الأنظار إليه، عندما جعل بطله يسوق مبررات تحول موقفه من البحر قائلًا: "**مَا أَحْوَجَ الإِنْسَانَ إِلَى رَادِعٍ، وأَجْدَرَهُ بِفَاصِلٍ مِنَ الْقَوْلِ وصَادِعٍ، وسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الأَشْياءَ بَتَاتًا، وصَيَّرها جُمُوعًا وأَشْتَاتًا، وجَعَل فِيهَا النَّفْعَ والضَّرَرَ، ونَاطَ بِهَا الأَمْنَ والغَرَرَ**". فلعله بهذا كان يرمي إلى ما وراء الحكاية من غايات، ربما تتمثل في أن شخصية السدوسي يمكن أن يكون لها ظلال واقعية، تتجسد في تلك الشخصية التي تنفك من ربقة المبادئ، وتخول لنفسها تعاطي الشيء ونقيضه، ما دام ذلك سيجلب لها النفع، ومن الدلالات المستنبطة أيضًا أن للكلام البليغ سحرًا، يجعل لصاحبه سلطانًا على الناس(١)، ومنها ما نُصّ عليه في الفقرة السابقة من أن الشيء الواحد قد يحوي النفع والضرر، والبصير من ينفذ إلى كنهه، ويأخذ منه ما ينفعه ويُخلِّي ما يضره، وأن العلم – ممثلًا في شخصية السدوسي – قد يتصارع مع المادة – أموال البحارة – فتكون له الغلبة.

ثالثًا: حجة السُّلطة:

حجة السُّلطة هي "التي تستخدم أعمال شخص أو مجموعة أشخاص أو أحكامهم حجة على صحة أطروحة ما"(٢)، مما يعني أن نجاع هذه الحجة مرهون بقيمة الشخص المذكور في الخطاب، وبالخلفية المعرفية لجمهور المتلقين عنه وعن أثره – الإيجابي أو السلبي – فيهم، وبالنسبة للأشخاص الممثلين في مقامات السَّرَقُسْطِي، فلا

---

(١) سبق ابن وهب الكاتب، فتنبه لعظم عواقب إطلاق اللسان وجنايات البيان على كثير من الناس فقال: "فأما أدب الجدل فأن يجعل المجادل قصده الحق وبغيته الصواب، وألا تحمله قوة إن وجدها من نفسه، وصحة في تميزه وجودة خاطره، وحسن بديهته، وبيان عارضته، وثبات حجته على أن يسرع في إثبات الشيء ونقضه، ويسرع في الاحتجاج له ولضده" البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٩م، ص١٨٨.

(٢) عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣٣٥.

يَخْفى تأثره الواضح بالحريري في صنعها؛ فبطلها السدوسي هو من أبطال الشحاذة الأدبية، وقد جاء على غرار بطل الحريري أبي زيد السروجي، أما راويته السائب بن تمام، فقد جعله في محاذاة راوية مقامات الحريري: الحارث بن همام(١)، وثمة راوٍ آخر، هو المنذر بن حمام، وقد انفرد السَّرَقُسْطِي بإضافته من عنده، وهو "راوية ثانوي، يظهر حينًا ويختفي أحيانًا، وينتهي دوره عند ذكر اسمه في أول المقامة، إذ لا دخل له في أحداثها، ولا تدور بينه وبين البطل وقائع ومحاورات، كما هي الحال مع الراوية الأساسي، ولعل السَّرَقُسْطِي قد استحدث هذا الراوية الثانوي لتتم السجعة في صدر مقامته"(٢)، وبجانب هذه الأعلام الثلاثة ظهرت في مقاماته وفي مقامته البحرية شخصيات ثانوية أخرى، وجميعها – الرئيسية والهامشية – كان لها دور فاعل في عملية الحكي وفي سير الأحداث، والأهم في عملية الحِجَاج بتقوية سلطتها والتمكين لها؛ بغية تمرير حيلة السدوسي والوصول إلى مبتغاه في الحصول على اللهى في نهاية المطاف.

وهذا التعدد في الشخصيات المتآزرة والمتفقة في وظيفتها التداولية الحِجَاجية يؤكد ما ذهب إليه فيليب بروطون من أن المتكلم إما أن "يدعم تأطير الواقع مستندًا إلى سلطته الخاصة، وإما أن يستدعي سلطة خارجية"(٣)، وقد تمثلت السُّلطة الخاصة في المقامة البحرية في شخصية بطلها السدوسي، أما السُّلطة الخارجية، فيمكن حصرها في شخصية الآخر:

١ – سُلطة السدوسي

تعتمد المقامة في الأصل على الكُدية والحيلة؛ لذا ألفينا السدوسي حين استعمل سلطته الخاصة قد أخفى حقيقة شخصيته، وعمد إلى إبرازها في صورة حسنة، تجعل له

(١) ينظر: شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات: الأندلس، ص٥٢٣.

(٢) حسن عباس: فن المقامات في القرن السادس، دار المعارف، ١٩٨٦م، ص١٠٣.

(٣) فيليب بروطون: الحِجَاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٨٢.

قبولًا بين مخاطبيه، وذلك على نحو ما أورده السَّرَقُسْطِي على لسان السائب بن تمام قائلًا: "**وقدْ أَزْمَعْتُ عَلَى رُكُوبِ ذَلِكَ الْبَحْرِ، إِذْ سَمِعْتُ هَاتِفًا يَقُولُ: مَنْ يُصْغِ إِلَيَّ قليلاً، يَغْنَمْ مِنْ إِرْشَادِي جَلِيلاً، أَشْحَذُ مِنْ فِرِنْدِهِ، وأُخْبِرُهُ عَمَّا خَفِي عَلَيْهِ من صِينِهِ وهِنْدِهِ**".

هذا أول موضع تحدث فيه البطل في المقامة عن نفسه، وبدأ يلقي حبائله وشراكه؛ لإغراء الجمهور وتحفيزهم للالتفاف حوله والإصغاء إليه وإثنائهم عما عزموا عليه من ركوب البحر؛ وقد تسنى له ذلك بأن عدَّد المنافع التي يغنمها من يصغي إليه، مستخدمًا من الوسائل اللغوية والبلاغية والدعائية ما يجعل هذا الجمهور مطمئنًا لوعده ضامنًا للربح؛ إذ استخدم أسلوب الشرط (مَنْ يُصْغِ... يغنم)، مكتمل الأركان، لا يفصل الجواب فيه عن الفعل إلا كلمتان؛ مما يشي بسرعة حصول المصغِي على المغانم، ومن الملاحظ أن الكاتب عزز هذا المعنى بمقابلته بين اللفظتين (قليل وجليل)؛ إذ زاد هذا التضاد من تحفيز مخاطبيه وترغيبهم، وأكدت أن هذه المغانم، بالرغم من أنها مغانم جليلة، فإنهم سينالونها دون نصب أو عناء.

ولقد كان من فطنة المتحدث أنه عندما قصد إلى بيان طبيعة المغانم التي وعد بها في قوله في الفقرة السابقة" "أَشْحَذُ مِنْ فِرِنْدِهِ، وأُخْبِرُهُ عَمَّا خَفِي عَلَيْهِ من صِينِهِ وهِنْدِهِ" لم يفصح عن كنه هذه المغانم بشكل دقيق، وإنما استعمل ألفاظًا تحتمل التأويل؛ حتى يضمن اجتماع أكبر قدر من الناس حوله، وعدم اختلافهم قبل الحضور إليه.

ولمَّا عدل السدوسي عن موقفه من البحر، وأراد أن يرغّب الناس فيه وأن يحمله على ركوبه بعد أن كان قد خوفهم من قبل مغبة هذا الأمر، عاد مرة ثانية إلى استعمال حجة السُّلطة الخاصة به[1]، وذلك قوله: "**هَذَا نُصْحُ إِيمَانٍ، ورأيُ أمانٍ، وإِرْشَادُ مُجَرِّبٍ، وتَسْدِيدُ مُشَرِّقٍ ومُغَرِّبٍ، صَحِبَ الدُّهورَ والأَعْصَارَ، واستوطنَ الْمَدَائِنَ والأَمْصَارَ،**

(١) استعمال السدوسي سلطته الشخصية في موقفين متناقضين يؤكد ما ذهبت إليه سامية الدريدي من أن المؤسس للخطاب الحِجَاجي كثيرًا ما يعمد "إلى كسر العلاقة بين الشخص وأعماله مشككًا في ثبات الشخصية أو متعللًا بتطور الظروف وتغير المقامات أو متخذًا التغير أو التقلب في ذاته مبررًا لبتر هذه العلاقة" الحِجَاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص٢٣٠.

وتَوَغَّلَ المَسَالِكَ، وتَعَاطَى المَمَالكَ، وحالفَ الإسْئادَ والإسْراءَ، وتَحقَّقَ الْمَذَاهِبَ والآراءَ، فَخُذُوها من نُصْحِي نَخِيلَةَ، مُؤذِنَةً بالخيرِ ومُخِيلَةً، لا أَسْأَلُ عَنْهَا جَزَاءً، ولا أَبْغِي عليْهَا إزاءً، فإنَّنِي مَنْ لا يَعْنِيهِ اكْتِسابٌ، ولا يُزْهِيهِ انْتِسَابٌ".

عزز السدوسي سلطته الخاصة في الفقرة السابقة بحجة التجربة، التي تعتمد على الممارسة الفعلية(١)، وعلى مجموع الخبرات، التي حاول هذا البطل إقناعنا بأنه قد تزود منها، وأوفى على الغاية في اكتسابها؛ وهو لهذا الغرض قد عدل عن استعمال الأفعال المضارعة، التي قد توهم بأنه لا يزال في طور التجريب والتبعية، واستخدم عددًا من الأفعال الماضية، الدالة على المصاحبة والنضج والاستغراق في الفعل، والإتيان به على الوجه الأمثل؛ مثل: (صحب، واستوطن، وتوغل، وتعاطى، وحالف، وتحقق) وإمعانًا منه في التأكيد على ثراء تجربته، وعمقها، وامتدادها زمنيًّا ومكانيًّا، نراه قد نوع في متعلقات هذه الأفعال، وجاء بجلّها في صيغة الجمع (الدهور، الأعصار، المدائن، الأمصار، المسالك، الممالك، الآراء، المذاهب)، وقد والى بينها – على مستوى الجمل والكلمات – عن طريق العطف بالواو(٢)، وهي من أدوات الربط والاستئناف، التي تبني النتيجة على السبب، أو تحدث هرمية في شأن القيم(٣).

---

(١) فيليب بروطون: الحِجَاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، ص٨٦.

(٢) استعمل الكاتب الواو العاطفة – بين الجمل والألفاظ – في هذا الموضع ست عشرة مرة (١٦) مرة، بينما استعملها في مجمل المقامة ثلاث مائة وسبع (٣١٧) مرة، ولعل علة هذا هو عنايته بالاستقصاء والتفاصيل التي من شأنها استغراق الفكرة والاطمئنان إلى تلقف المحاجَج لها والإذعان لسلطانها.

(٣) ينظر: عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣٢١.

ولما كانت السُّلطة في الحِجَاج ليست "سوى اقتراح نقدمه للآخر الذي يمتلك حرية تقبله"(١)، فقد ألفينا المتحدث في الفقرة السابقة يحرص على كسب تعاطف مستمعيه وعدم تنفيرهم منه؛ وذلك بوسيلتين؛ الأولى: أنه قد استعمل في الكلام عن نفسه ضمير الغائب، وليس ضمير المتكلم، الذي قد يفضي إلى تضخيم الأنا والاستعلاء، الثانية: أنه لم يفته أن يوضح لمخاطبيه في نهاية هذه الفقرة أن ما سبق من إطراء النفس لم يكن لكسب المال أو لمنفعة خاصة، وإنما كان من باب حرصه عليهم، وإرادته الخير لهم، ويعد هذا شرطًا هامًا لنجاح المتكلم في الوصول لغايته؛ لأن "المحتج ليفعل في المتلقي يختفي وراء قناع المحلل الرصين الذي يعرض الأحداث بموضوعية وتجرد تامين، فإذا بالخطاب شفاف في ظاهره وفي باطنه حجاج أي إقناع بل حمل على الإذعان، ذلك أن المتلقي متى تفطن إلى الرؤية التي توجِّه كل الخطاب وتقوده نحو غايته الحِجَاجية ما عاد يغتر بظاهر القول"(٢).

وفي إطار حجة السُّلطة الخاصة بالسدوسي ما لبث أن شفع الفقرة النثرية السابقة بمقطوعة شعرية من نظمه(٣)، وطَّأ لها الراوي بقوله: "**وجعل يقول:** وقد جاء فيها:

أنـــــا شِـــــهابٌ ولكـــــنْ هيهـــاتَ منِّـــي الشِّـــهابُ

---

(١) فيليب بروطون: الحِجَاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، ص٨٢، ٨٣.

(٢) سامية الدريدي: الحِجَاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص٣٦.

(٣) تضمين السَّرَقُسْطِي مقاماته بعضًا من أشعاره ظاهرة فطن بعض الدارسين إلى اطرادها وإلى ما تحققه من وظائف، ومن هؤلاء الدكتور: محمد الهادي الطرابلسي في قوله عن هذه المقامات: "والشعر فيها شخصي من السَّرَقُسْطِي نفسه ويخضع للزوم كالنثر، هو شعر كثير ومطرد في المقامات لا تخلو منه واحدة، ودوره في بناء المقامة أساسي؛ فالسَّرَقُسْطِي لا يسوقه للاستشهاد أو لمجرد ترصيع فصول المقامة النثرية، بل على أنه لبنة بنيوية وفكرية تبين أن المقامة عنده لا تقوم إلا بها، ينشده الشيخ المكدي لكشف حقيقة وبيان موقف وتوضيح عقيدة" مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطي، ص١١٧.

لِسَـــــوْرةِ العَـــــزْمِ منِّـــــي تَوَقُّـــــــدٌ والتِهـــــــابُ
ناهَبْـــــتُ دَهْـــــرِي رِزْقِـــــي فطَـــــالَ مِنِّـــــي نِهـــــابُ
وقلـــــتُ: نَهْـــــبٌ مُبَـــــاحٌ فعَـــــزَّ ذاكَ النِّهـــــابُ
فـــــلا الغَنِـــــيَّ أُرَجِّـــــي ولا الفَقِيـــــرَ أَهَـــــابُ
سِـــــيَّانَ عِنْـــــدِي جَهَـــــامٌ يَمُـــــرُّ بـــــي أو ذِهَـــــابُ
فلـــــي أَدِيـــــمٌ صـــــحيحٌ عَـــــن الخَنَـــــى وإِهَـــــابُ
ومـــــا علـــــى الـــــدَّهرِ شـــــيءٌ إلا عليـــــهِ الـــــذَّهابُ"

إن تضمين المقامة مثل هذه الأبيات الشعرية قد ضاعف من نجاعة حجة السُّلطة البلاغية للبطل، كما أفاد منها حجاجيًّا في درء شبهة الخداع عنه وترسيخ صورة مثالية له، تشبه هذه الصورة التي كان عليها النبلاء من الشعراء في القديم، ممن لم تَعْلُ بهم طبقتهم الاجتماعية، ولم تتهيأ لهم ظروف الثراء والغنى، أو أخنى عليهم الدهر، ولكنهم برغم ذلك ظلوا محتفظين لأنفسهم بعزتها وكرامتها؛ وقد تبين لنا هذا في تشبيه السدوسي نفسه في هذه الأبيات بالشهاب، واستدراكه على هذا التشبيه وجعل الشهاب دونه، كما أنه فيها قد أعلن عن صيانته هذه النفس عن كل ما يدنسها؛ لمعرفته حقيقة الدنيا وفناء كل ما يجمعه الإنسان فيها، وإن كثر.

ومما عزز الدور الإقناعي لهذه الأبيات أن الكاتب قد أحسن تضميخها في كلامه ليس على مستوى المعنى والدلالة فقط، بل على مستوى البنية التركيبية والموسيقية؛ بأن وافق بين قافيتها – قافية الباء – وبين السجع الذي كان قبلها في كلامه المنثور، في كلمتي (اكتساب وانتساب) وقد كانت هذه الموافقة علامة على أن هذا الشعر للكاتب وليس لشاعر آخر[١].

(١) أثنى الكلاعي على هذا الصنيع من قِبَل الكتاب، وحكم بأنه من سمات المجيدين منهم، لا سيما كتاب الرسائل، وفي هذا يقول: "وكان المجيد كثيرًا ما يضمِّن في رسائله أشعاره وأشعار غيره، فكان إذا ضمَّن أشعاره يوافق بين قافيتها وبين السجع الذي قبلها، ليُعلم بذلك أن الشعر له، وكان إذا ضمَّن أشعار غيره خالف بين السجع والقافية، وهذا حسن يجب أن يمتثله من أراد إحكام صنعة

وإن مما تجدر الإشارة إليه أن السدوسي في المقامة البحرية قد استعمل سلطته الخاصة في سياق التهديد؛ وذلك عندما خاف من مخاتلة أصحاب السفن له، وألا يعطوه ما وعدوه بعد أن وفَّى بوعده معهم، فوجه إليهم الخطاب قائلًا: "**أنا لا أَرْمِيكمْ بالقَذَعِ، ولكنْ أَكِلُكُمْ إلى الأَزْلَمِ الجَذَعِ، ولو شِئتُ رَدَدْتُ قَارِحَ هذا الأَمْرِ إلى سِنِّ الجَذَعِ**".

وإذا ما كانت "العادة في الحِجَاج ألا تكون الحجة بالسُّلطة الحجة الوحيدة فيه، وإنما تأتي هذه الحجة مكملة لحجاج يكون غنيًّا بحجج أخرى"(١)، فهذا ما يفسر مجيء حجة السلطة في ختام الفقرة السابقة في إهاب حجة التمثيل(٢)؛ إذ عدل فيها عن استعمال التعبير المباشر ولغة الحقيقة إلى لغة المجاز والتخييل؛ فاستعار للحدثين المختلفين اللذين وقعا في يومين متوالين، حدث تبغيض السدوسي الناسَ في ركوب البحر في اليوم الأول، ثم حدث تحبيبهم فيه في اليوم الثاني، استعار لهما صفتين متناقضتين من صفات الفرس؛ إذ جاء في لسان العرب "قَرَحَ الفرس يَقْرَح قُرُوحًا، وقَرِحَ قَرَحًا إذا انتهت أسنانه، وإنما تنتهي في خمس سنين، لأنه في السنة الأولى حَوْليّ، ثم جَذَع ثم ثَنِيّ، ثم رَباع، ثم قارح، وقيل هو في الثانية فِلْو، وفي الثالثة جَذَع"(٣)، وبهذا تكون لدينا استعارتان؛ الأولى شبَّه فيها حال النفع وترغيب أصحاب السفن بمرحلة قروح الفرس ونضجها والانتفاع بها، والثانية: شبَّه فيها حال التبغيض بسن الجذع والحداثة عند الفرس، وثمة من وراء هاتين الاستعارتين مبالغة واستعراض للقوة من قِبَل السدوسي

الكلام" إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م، ص٦٢.

(١) عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣٣٥.

(٢) حجة التمثيل هي ألصق أنواع الحجج بالشعر؛ لأنها تستعمل في الاحتجاج "لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر فندخل بذلك مجال التشبيه والاستعارة أو ما عالجه الفلاسفة تحت عنوان القياس الشعري" سامية الدريدي: الحِجَاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص٢٥٢.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة قرح.

الذي أنذر بقدرته الخارقة على تغيير نواميس الكون، فما بالهم بما دون ذلك من الأمور.

٢- سلطة الآخر:

ينضوي تحت حجة السلطة ما أطلق عليه أوليفيي روبول اسم الحجة على الذات adhominem أو حجة السلطة المعكوسة "وهي تقوم على دحض قضية بربطها بشخصية مقيتة"[١] هذه الشخصية المقيتة تجسدت في المقامة البحرية في شخصية الآخر، التي استثمر الكاتب/ السدوسي مخالفتها مستمعيه في العقيدة في صدهم عن ركوب البحر، وذلك في مخاطبته لهم بقوله: "**تَتَقَيَّلُونَ ظِلالَ الوَجَاهةِ والتَّكريمِ، وتَتَقَاضَونَ أَنْصفَ مُداينٍ وغَرِيمٍ، حَتَّى تُطَاوِلُوا الأَسْفَارَ، وتُعَامِلُوا الكُفَّارَ، وتُمَلِّكُوهُمْ الرِّقَابَ، وتَخْلَعُوا دُونَهمْ النِّقَابَ، فيُجْرِوا علَيْكُمْ الأَحْكامَ، ويَغْنمُوا الْعِيابَ والأَعْكامَ، ثُمَّ تُعَايِنُوا عِبَادَةَ النِّيرانِ، ومُراقَبةَ القِرَانِ، والتَّقَرُّبَ بِالأَبْدَانِ، والتَّزُلُّفَ بالْمَدَانِ، مِنْ أُمَّةٍ تَسْتترُ عنكُمْ بِالرَّطَانَةِ، وتَدَّعِي دُونَكُمْ فِي اللَّبَابَةِ والْفَطَانَةِ، ويَزْدَرُونَكُمْ ازْدِرَاءَ النِّمَالِ، ويَسُمُونَكُمْ سِمَةَ الإِغْفالِ والْإِهْمَالِ**"

توسل السدوسي في كلامه السابق إلى تخويف مخاطبيه وزجرهم ببسط نفوذ الآخر/ الكفار وتقوية سلطته، وقد تسنى له ذلك من خلال أربعة أمور مرتبطة ببعضها؛ الأول: أنه قرن حجة السلطة المتعلقة بالآخر هنا بحجة أخرى؛ هي حجة الشهادة، التي من شأنها الإحالة إلى ممارسات ملموسة ووقائع تتماز بقوة الحضور[٢]، هذا الحضور المتمثل في المقامة في معاينة الآخر والاحتكاك به احتكاكًا مباشرًا. الثاني: أنه رتب – من باب ارتباط النتائج بأسبابها – على هذا الاحتكاك وقوع خسائر، سيتكبدها – لا محالة – مخاطَبو السدوسي علي يد الآخر؛ لأن ثمة بينهما مفارقة في القوة والسيطرة

(١) أوليفيي روبول: مدخل إلى الخطابة، ترجمة: رضوان العصبة، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٧، ص٢٠٨.

(٢) فيليب بروطون: الحِجَاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، ص٨٧.

والتحكم، جلّتها كثرة الأفعال المضارعة الموزعة على هذين الطرفين؛ أما المخاطَبون، فقد أبان عن سوء حالهم – حال اللقاء – الأفعال: (تطاولوا، تعاملوا، تملّكوا، تخلعوا، تعاينوا)، وأما الآخر، فقد دلت على تفوقه في هذه الحال الأفعال: (يُجْروا، يغنموا، تستتر، تدّعي، يزدرون، يسمون). الثالث: أن السدوسي لم يقصر خسائر مستمعيه على المضار المادية؛ مثل: ملك الرقاب، وخلع النقاب، وفقدان الأمتعة والأموال، وفقدان التواصل والمعايشة، وإنما تعدى ذلك إلى فتنة الآخر/ الكفار لهم في دينهم وعقيدتهم. الرابع: أن المتحدث في الفقرة السابقة قد أطنب في كلامه، معولًا على أداة عطف واحدة هي الواو، وقد توالى من خلالها عدد من الجمل القصيرة المنتظمة موسيقيًّا، وكأنه عن طريق كثرة هذه الجمل وتعاقبها على المعنى الواحد يروم الإلحاح عليه وقرع الأسماع لتصديقه والإذعان له.

ولعلم الكاتب/ السدوسي بنجاعة الربط بين سلطة الآخر والأثر السلبي الذي يحدثه، لا سيما في المساس بانتماءات مخاطبيه الدينية والقومية، نراه يركز على هذا الجانب، ولكن هذه المرة في أبيات شعرية شفع بها مقطوعته النثرية السابقة، وهي قوله:

يـا مـا أَذَلَّ الْعُـرْبَ بَـيْنَ الْعُجْـمِ وقَـدْ رَمَـوْهُمْ بِـالأَذَى والـرَّجْمِ
إِيَّـاكَ عَبْـدَ اللهِ عَبْـدَ النَّجْـمِ والـنَّفْسَ فاقْـذَحْها بمِثْـلِ اللَّجـمِ
فـالعُوْدُ قـد يُثْنِيـهِ طُـوْلُ الْعَجْـمِ والْجَـامِحُ الصَّـعْبُ أَسِـيْرُ الْحَجْـمِ
حَـاذِرْ هُجُـومَ الْمَـوْتِ أَيَّ هَجْـمِ فَكُـلُّ بَيْـتٍ سَـامِكٍ لِلْهَجْـمِ

أترع السدوسي الأبيات السابقة – بما لا يبهظها – بعدد من وسائل الترهيب لجمهوره؛ وصولًا إلى إقناعه بما يريد؛ فاستعمل في البيت الأول أسلوب الندبة، مقرًّا بحقيقة معادة الأعاجم للعرب الذين ينتمي إليهم هذا الجمهور، ثم أتبع ذلك بتحذير مستمعيه في البيت الثاني من هذا العدو ومن الغفلة والاستسلام لهوى النفس، ثم تأتي الحكمة في البيت الثالث متصلة بهذا المعنى، ويبلغ هذا الترهيب ذروته في البيت الرابع والأخير، حينما يجمع بين أسلوبي التحذير والحكمة؛ لتذكير مخاطبيه بإمكانية مباغتة الموت للإنسان – ولو كان في أصح حال، وفي بروج مشيدة – والهجوم عليه وهو واقع في براثن الآخر، قد تعرض لفتنته.

رابعًا: الحجة البراغماتية

ثمة حجج مؤسَّسة على بنية الواقع، وهي ليست من الحجج التي ترمي إلى صحة الموضوع بفضل ما له من بعد عقلاني، تستمده من علاقتها ببعض الصيغ المنطقية والرياضية، كما هو الحال في الحجج شبه المنطقية(١)، ولكنها – أي الحجج القائمة على بنية الواقع – تستلهم مصداقيتها من التجربة، ومعها يقوم المحتج بتوضيح الروابط وأواصر الصلة التي تجمع بين القضية أو الشيء الذي يتم الدفاع عنه وبين عنصر واقعي مقبول سلفًا لدى المتلقي(٢)، وتعد الحجة البراغماتية Largument Pragmatique إحدى هذه الحجج المعززة للبعد الواقعي في الحِجَاج، كونها "يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية، ومن هنا كان للحجة البراغماتية تأثير مباشر في توجيه السلوك"(٣)؛ لا سيما إذا كان المخاطب معايشًا للحدث، ومطلعًا عن كثب على العناصر التي يتم تقويمها – إيجابيًّا أو سلبيًّا – في أثناء عملية الحِجَاج.

وقد كان مدار الحِجَاج في المقامة البحرية قائمًا بشكل أساسي على الحجة البراغماتية؛ إذ اصطنع كاتبها أو بطلها نوعًا من المفارقة والضدية بين عنصري الطبيعة البحر والبر، وذلك حسب مسار الأحداث وما كان مخططًا له من قِبَله؛ فقد ذم البحر أولًا واستتبع ذلك مدحه البر، ثم لما عدل عن هذا أخذ يثني على البحر وفي المقابل يذم البر، وسبيله في الحالين بيان منافع كل منهما ومضاره، على النحو الآتي:

---

(١) ينظر: عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣٣١.

(٢) ينظر: فيليب بروتون وجيل جوتييه: تاريخ نظريات الحِجَاج، ترجمة: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١١م، ص٤٩.

(٣) ينظر: عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣٣٣.

(أ) البحر:

اعتمد السَّرَقُسْطِي على الحجة البراغماتية في بيان مضار البحر وخطر ركوبه على لسان السدوسي في قوله: "**أَيُّهَا الْقَوْمُ، كلٌّ لَهُ عَلَى هَذَا الرِّزْقِ حَوْمٌ، وإِنَّ شَيْئًا يُخَاضُ إِلَيْهِ هَذَا الْهَوْلُ ويُجَابُ لأَمْرٌ عُظَامٌ وشَأْنٌ عُجَابٌ، ومَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى رُكُوبِ هَذَا الْبَحْرِ العَجَّاجِ وخَرْقِ هَذَا الْمَاءِ الثَّجَاجِ، ولَكُمْ فِي الْبَرِّ مُنْفَسَحٌ ومَجَالٌ، ودُونُكُمْ مِنْ هَوْلِهِ أَوْحَالٌ وأَوْجَالٌ، كأَنَّكمْ قد مَلَكْتمْ عِنَانَهُ أو سَالَمْتمْ نِيْنانَهُ، ووطِّئتْ لكُمْ أَعْرافُهُ وذُلِّلَ طُمُّوهُ وإِشْرافُهُ، واللهِ لو سَلَكْتُموه يومًا، أو قَطَعْتموه عومًا، لكانَ ذلكَ من الخَطرِ، ومَعْدودًا من البَطَرِ، هَلْ سُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَسَالِكُ، أو طُوِيَتْ دُونَكُم الْمَمَالِكُ؟ أمَا لَكُمْ فِي قصدِ الْمُلُوكِ مَتْجَرٌ رَابِحٌ، ومَغَابِقُ مِنَ الْعَيشِ ومَصَابِحُ؟**"

بالرغم من أن الحجة البراغماتية هي المهيمنة على الفقرة السابقة، فإنها قد حوت حجة أخرى لتعضيد فعل التواصل، تلك هي حجة الاشتمال أو إدماج الجزء في الكل[١]، وقد تمثلت في قول الكاتب في بداية الفقرة (**كلٌّ لَهُ عَلَى هَذَا الرِّزْقِ حَوْمٌ**) وقد اتخذ هذه المقدمة أو الحقيقة أو القاعدة العامة مدخلًا عقليًّا لاستدراج المتلقي منطقيًّا للوصول لنتيجة أو مراد معين، على النحو الآتي:

١) جميع الناس (الكل) يسعون لطلب الرزق ويرومونه.
٢) بعض هذا الكل (القوم المخاطبون) يطلبون الرزق عبر البحر.
٣) البحر به من المخاطر ما لا يقدر عليها المخاطبون.
٤) البر مكان آمن وميسر لطلب الرزق.
٥) النجاة – إذًا – في ترك ركوب البحر والاستعاضة عنه بالبر، ذلك المكان الآمن.

استعان الكاتب أيضًا في إطار توظيفه للحجة البراغماتية في هذه الفقرة ببعض

---

(١) ينظر: عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، وسامية الدريدي: الحِجَاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص٢١٠.

الأساليب البلاغية والصيغ اللغوية المفضية إلى تقبيح ركوب البحر؛ مثل استخدامه أسلوب الاستفهام في قوله: **(مَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى رُكُوبِ هَذَا الْبَحْرِ العَجَّاجِ؟ وخَرْقِ هَذَا الْمَاءِ الثَّجَاجِ؟ هَلْ سُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَسَالِكُ؟ أو طُوِيَتْ دُونَكُم الْمَمَالِكُ؟ أمَا لَكُمْ فِي قصدِ الْمُلُوكِ مَتجَرٌ رَابِحٌ؟ ومَغَابِقُ مِنَ الْعَيشِ ومَصَابِحُ؟)** وهذه استفهامات[١] ستة، جميعها قد خرجت عن المعنى الحقيقي للاستفهام وهو "طلب الفهم"[٢] إلى معانٍ مجازية؛ تمثلت في الاستنكار في الأربعة الأولى منها، والحث والتحضيض في الأخيرين، وتكمن القيمة الحِجَاجية للاستفهام أننا "نفرض على المخاطب به إجابة محددة يمليها المقتضى الناشيء عن ذلك الاستفهام؛ فيتم بذلك توجيه دفة الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد"[٣].

وكان مما عظم من الدور الحِجَاجي للأسئلة السابقة أنها قبحت صورة البحر بطريق المفاضلة بينه وبين البر؛ والكاتب في هذه المفاضلة يجتبي الألفاظ والصيغ اللغوية بعناية؛ إذ وصف البحر مستخدمًا صيغتي المبالغة **(العَجَّاج، الثَّجَاج)** للدلالة على شدة انصباب ماء هذا البحر وسماع صوت سيلانه؛ مما يبعث على شدة الهول منه، كذلك استخدم في حديثه عنه الجمعين (أوحال وأوجال) للدلالة على كثرة مضاره، أضف إلى ذلك كله استعماله القسم **(والله)** والتوكيد في قوله: **(وإِنَّ شَيْئًا... لأَمْرٌ...)**، وفي المقابل استعمل في جانب البر الجموع (المسالك، الممالك، الملوك، مغابق، مصابح) للدلالة على كثرة منافعه وانتفاء أضراره.

أما بعد أن حصلت عملية التحول الضدي في موقف السدوسي من البحر، فقد

---

(١) جدير بالذكر أن السَّرَقُسْطِي استعمل الاستفهام في مقامته البحرية اثنين وعشرين (٢٢) مرة، من خلال سبع أدوات استفهام، هي (ما، وهل، وأما، وكم، ومَنْ، وأين، وكيف).

(٢) ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩١م، ١٩/١.

(٣) عبد الله صولة: الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص٤٢٧.

لجأ إلى الحجة البراغماتية نفسها في حث مستمعيه على ركوبه، معددًا لهم فضائل هذا الأمر، والمنافع الجمة التي يجنونها من ورائه، وذلك قوله: "**وإِنَّ لهَذَا الْبَحْرِ لَخَبَرًا، وإِنَّ بِهِ لآيَاتٍ وعِبَرًا، إِلَى مَرافِقَ ومَنافِعَ، ومَتَالِعَ مِن الرِّزْقِ ومَدافِعَ، فَمِنْ لُؤْلُؤٍ ومَرْجَانٍ، وقَاطِفٍ مِنْ ثَمْرَةٍ وجَانٍ، يَجُودُ بالنَّفَسِ الرَّطْبِ، ويَقْذِفُ بِمَا يُزْرِي عَلَى السَّرَقِ والعَطَبِ، قَدْ مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، حِينَ سَخَّرَهُ وقَدَّمَ ذِكرَهُ تَارَةً وأَخَّرَهُ، وجَعَلَهُ مَظِنَّةً لابْتِغَاءِ خَيْرِهِ ومَكَانًا، وزَادَ به عِبَادَهُ تَوسِعَةً وإِمْكانًا، وصَيَّرَ مَاءَهُ الطَّهُورَ ومَيْتَتَهُ الْحَلالَ، ورَفَعَ عَنْ راكبِهِ العَيَّ والكَلالَ، فَالْمَرْءُ فيه أبدًا مُعْتبِرٌ، وعَلَى لأَوَائِهِ مُصْطَبِرٌ، فَهُوَ في ذِكْرٍ، وعَلَى اعْتبَارٍ وفكرٍ، يَنْتظرُ الفَرَجَ، ويَتَنَسَّمُ مِن رَوْحِ اللهِ الأَرَجَ، يُطَالِعُ فِي كُتُبِهِ ويُدَارِسُ، ويُقَارِعُ فِي رُقْعَتِهِ ويُمَارِسُ، ورُبَّمَا طَارَدَ نُونَهُ، وأَثَارَ مَكْنُونَهُ، وأَكَلَ الْمَالِحَ والطَّرِيَّ، وحَادَثَ الكُوْفِيَّ والبَصْرِيَّ، وأَدْرَكَ السَّابِحَ والْجَرِيَّ، يَأْمَنُ ويَحْذَرُ، ويَأْخُذُ مِنْ أَمْرِه ويَذَرُ، ويَحْمِلُ مَا شَاءَ مِنْ أَثْقَالٍ، ويُكْفَى مَشَقَّةَ إِيْضاعٍ وإِرْقَالٍ، فَمَنْ رَأَى مُقِيمًا وهو رَاحِلٌ، وقَاعِدًا تُطْوَى به المَراحِلُ، فيأْمَنُ الكَبْوَةَ، ولا يَتَوَقَّى الهَبْوَةَ، فَمَا ظَنُّكَ وَقَدْ هَبَّتِ الرِّيَاحُ بَينَ يَدَي الرَّحْمَةِ نُشُرًا، وتَمَلَّأَتِ النُّفوسُ لِمَا خَامَرَها مِن الرَّوْحِ بُشُرًا، ولَبِستْ رِدَاءَ الأَمَانِ، وأَخَذَتْ عَلَى دَهْرِها بِالضَّمَانِ، حَتَّى إِذَا أَلْقَى مَرْسَاهُ وخَلَعَ آسَاهُ ونَسِي لَعَلَّهُ وعَسَاهُ، ورَأَى مُزْجَى بَضَائِعِهِ نَامِيًا، وسَقَطَ مَتَاعِهِ سَامِيًا، فَاغْتَبَطَ وَقْرَهُ وثِرَاءَهُ، وأَحْمَدَ تَأْوِيبَهُ وإِسْرَاءَهُ، ولَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ عَلَيْهِ يَدٌ تُعَالِيهِ، ولا ظَهِيرٌ يُوالِيهِ، ولا تَمَنَّعَ عَلَيْهِ حِجَابٌ، ولا أَمَضَّهُ زَهْوٌ ولا إِعْجَابٌ، ولا شَكَا المَطْلَ والتَّسْوِيفَ، ولا حَذِرَ الإِنْذَارَ والتَّخْوِيفَ، ولا دَارَى الكَرِيَّ ولا صَانَعَ، ولا دَافَعَ دُوْنَ مَالِهِ ولا مَانَعَ، ولا شَكَا وَعْثَ الطَّرِيقِ وشَعَثَهُ، ولا رَاقَبَ تَفَرُّقَ الرَّأيِّ وشَعَثَهُ؛ بَل سَارَ تَحْتَ أَمْرِ آمرٍ، ونَامَ عَلَى عَيْنِ سَاهِرٍ، بِحِفْظِهِ سَامِرٌ، يُطَاعُ أَمْرُهُ، ويُرْهَبُ ذَمْرُهُ، وتُخْشَى بَوَادِرُهُ، وتُغْشَى مَوَارِدُهُ ومَصَادِرُهُ، مُوْكَلٌ بالحِفْظِ والاحْتراسِ، مُعَنًّى بالشِّراعِ والأَمْراسِ، وهُوَ يأْوِي إِلَى مِهَادٍ وَثِيْرٍ، ومَكَانٍ أَثِيْرٍ، وظِلٍّ وَارِفٍ، وتَالِدٍ مِنَ الْعَيْشِ وطَارِفٍ**".

تتعضد الحجة البراغماتية في هذه الفقرة ببعض الحجج الأخرى وبعض استراتيجيات الإقناع؛ مثل حجة التقسيم Division أو التوزيع Partition، وهي من

الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، وتتمثل في وجود (كلّ) يشتمل عددًا من الأجزاء تنضوي تحته، هذا (الكل) هو الذي تجسد في (الخبر والآيات والعبر والمنافع) المذكورة في صدر النص السابق، ولما كان "الشرط في استخدام الحجة القائمة على التقسيم استخدامًا ناجحًا هو أن يكون تعداد الأجزاء شاملًا"(١)، فقد عني السدوسي في هذا النص بذكر أكبر قدر ممكن من هذه الأجزاء التي هي مجموع الفوائد التي صرح بها، وحَشْد هذه الفوائد لم يأتِ من قِبَل هذا المتكلم ضربة لازب ولا خبط عشواء، ولكنه قصد تنويعها، فلم يجعلها نافعة لصاحبها في الدنيا فقط، بل في الآخرة أيضًا، وفي هذا ما يجعل لكلامه قبولا تامًا لدى مستمعيه، ويجعلهم يحفدون ويقدمون على ركوب البحر.

كان الاستشهاد أيضًا من أهم استراتيجيات الإقناع التي زادت من نجاعة الحجة البراغماتية في الفقرة السابقة، ولأن هذا الاستشهاد أو التضمين – على اختلاف مظانه – بمثابة "حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مصادقة الناس عليها وتواترها"(٢)، فقد ألفينا السدوسي في فقرته هذه يكثر من الامتياح من معين القرآن الكريم – على وجه الخصوص – ثم من الحديث الشريف؛ وقد تجلت أولى مواطن التعالق مع القرآن الكريم في قول الكاتب: "**فَمِنْ لُؤْلُؤٍ ومَرْجَانٍ**" وهذا القول فيه اقتباس صريح من قوله تعالى((**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**))(٣)، وتكمن الوظيفة الحِجَاجية لهذا الاستشهاد في أهمية مصدره ومصداقيته التامة، ثم في الموقع الذي شغله؛ إذ أتى به الكاتب في صدر النص السابق وفي بداية عدّه المزايا التي يظفر بها راكب البحر؛ ومن ثَمَّ جعل المنفعة المادية (اللؤلؤ والمرجان) أولاها، مراعيًا بذلك هرمية القيم الواقعية، ومقدمًا في

(١) عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣٣١.

(٢) محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٩٠.

(٣) سورة الرحمن، آية ٢٢.

الذكر أثمنها وأشدها إغراء وأكثرها تأثيرًا في جمهوره.

ومن مواضع الاحتجاج بالشاهد القرآني في النص السابق قول الكاتب: "**قَدْ مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، حِينَ سَخَّرَهُ وقَدَّمَ ذِكرَهُ تَارَةً وأَخَّرَهُ، وجَعَلَهُ مَظِنَّةً لابْتِغَاءِ خَيْرِهِ ومَكَانًا، وزَادَ به عِبَادَهُ تَوسِعَةً وإِمْكَانًا**" وقوله: "**وأَكَلَ الْمَالِحَ والطَّرِيَّ**" وهذان الموضعان من المقامة فيهما تناص – الأول على جهة الإشارة، والآخر بشكل مباشر – مع آي مختلفة من القرآن الكريم؛ مثل قوله تعالى في سورة النحل ((**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)) [(١)]، وقوله تعالى في سورة فاطر: ((**وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**))[(٢)]، وقوله تعالى في سورة المائدة: ((**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ**))[(٣)].

وعلى هذا النحو استمد كلام الكاتب قوته واكتسب مصداقيته من الإحالة إلى هذه الآيات، التي أخبرت عن عدد من النعم التي امتن الله عز وجل بها على راكبي البحر؛ مثل نعمة اللحم الطري من السمك وغيره، التي كان في خروجها من هذا البحر نوع من الإعجاز، وإلى هذا أشار الرازي في تفسيره آية سورة النحل السابقة بقوله: "واعلم أن في ذكر الطري مزيد فائدة، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحًا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري، فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة، بل بقدرة الله وحكمته حيث أظهر الضد من الضد"[(٤)]، ومن هذه النعم نعمة الحلية، التي تلبس، والتي تمثلت في اللؤلؤ والمرجان، ومنها نعمة السفن التي تشق الماء؛ بغية ابتغاء

---

(١) سورة النحل، آية ١٤.

(٢) سورة فاطر، آية ١٢.

(٣) سورة المائدة، آية ٩٦.

(٤) الرازي: مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط١، ٥، ٢٠/٦.

الفضل، الذي فُسّر بالتصرف في طلب المعايش بالتجارة[١].

أشار السَّرَقُسْطِي في حجاجه إلى فوائد مادية أخرى للبحر، وذلك في قوله عنه: "**ويَحْمِلُ مَا شَاءَ مِنْ أَثْقَالٍ، ويُكْفَى مَشَقَّةَ إِيْضاعٍ وإِرْقَالٍ، فَمَنْ رَأَى مُقِيمًا وهو رَاحِلٌ، وقَاعِدًا تُطْوَى به المَرَاحِلُ**" وهو هنا يشير إلى منَّة سهولة السفر خلال البحر، متعالقًا بهذا مع أكثر من آية قرآنية صرحت بهذا المعنى؛ مثل قوله تعالى في سياق حديثه عن الأنعام: ((**وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**))[٢]، وقوله تعالى عن هذه الأنعام أيضًا: ((**وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**)) [٣]، وقوله تعالى:((**وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ**))[٤]، وقوله تعالى ((**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**))[٥]، على أن في هذه الآيات – خاصة الآية الأخيرة منها – لطيفة من اللطائف القرآنية، أشار إليها بعض المفسرين؛ مثل الألوسي في قوله: "ولأن الاستدلال بالفلك الجاري في البحر استدلال بحال من أحوال البحر بخلاف ما لو استدل بالبحر، وجميع أحواله فإنه أعم وأليق بالمقام، إلا أنه خص الفلك بالذكر مع أن مقتضى المقام حينئذ أن يقال: والعجائب التي في البحر لأنه سبب الاطلاع على أحواله وعجائبه فكان ذكره ذكرًا لجميع أحواله وطريقًا إلى العلم بوجوه دلالته"[٦].

---

(١) الطبري: جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ١٨٨/ ١٤.

(٢) سورة المؤمنون، آية ٢٢.

(٣) سورة غافر، آية ٨٠.

(٤) سورة الزخرف، آية ١٢.

(٥) سورة البقرة، آية ١٦٤.

(٦) الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي،

وكما عوّل الكاتب في مقامته على القرآن الكريم في احتجاجه بالمنافع المادية للبحر، فإنه أحال إليه أيضًا عند ذكر فوائده المتعلقة بأمور العبادة والعقيدة، وذلك قوله: "**وإِنَّ بِهِ لآيَاتٍ وعِبَرًا**" وقوله أيضًا: "**فَالْمَرْءُ فيه أبدًا مُعْتَبِرٌ، وعَلَى لأَوَائِهِ مُصْطَبِرٌ، فَهُوَ في ذِكْرٍ، وعَلَى اعْتبَارٍ وفِكْرٍ، يَنْتظرُ الفَرَجَ، ويَتَنَسَّمُ مِن رَوْحِ اللهِ الأَرَجَ، يُطَالِعُ فِي كُتُبِهِ ويُدَارِسُ، ويُقَارِعُ فِي رُقْعَتِهِ ويُمَارِسُ**"، فهو في هذين الموضعين متأثر بقوله تعالى((أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ))[(١)]، وهذا التأثر قائم على فكرة التدبر وأخذ العبرة والعظة من ركوب البحر.

أما عن الاستشهاد بالحديث الشريف فقد ورد في قول السَّرَقُسْطِي عن البحر في النص السابق: "**وصَيَّرَ مَاءَهُ الطَّهُورَ ومَيْتَتَهُ الْحَلالَ**" وفيه يتناص مع الحديث النبوي الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: "**سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ؛ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**"[(٢)] فطهارة ماء البحر وحل ميتته هما النعمتان أو المنتان اللتان ذكرهما الكاتب في نصه ونقلهما عن حديث رسول الله السابق نقلًا مباشرًا.

بيروت، ٣١/١. كذلك في هذه الآية دليل من دلائل الوحدانية، يقول الطاهر بن عاشور: "موقع هاته الآية من سابقتها موقع الحجة من الدعوى، ذلك أن الله تعالى أعلن أن الإله إله واحد لا إله غيره، وهي قضية من شأنها أن تُتلقى بالإنكار من كثير من الناس فناسب إقامة الحجة لمن لا يقتنع، فجاء بهذه الدلائل الواضحة التي لا يسع الناظر إلا التسليم إليها" التحرير والتحبير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ٧٦/ ٢.

(١) سورة لقمان، آية ٣١.

(٢) مالك بن أنس: الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ٢٢/١.

(ب) البر

كان البحر الموضوع الرئيسي في المقامة البحرية للسرقسطي؛ لذا لم يسهب في الحديث عن البر؛ إذ جاء استدعاؤه والاحتجاج به بوصفه نقيضًا للبحر وضدًّا له، يُفَضِّله الكاتب عليه حين يرمي إلى الحط من قيمة هذا البحر وإلى إيجاد مخرج لمستمعيه وسبيل للرزق بعيدًا عنه، وفي المقابل يزري بهذا البر وسالكيه، حين يتغيا تحفيز هؤلاء المستمعين وحثهم على ركوب البحر، وقد ورد في هذه المقامة في الثناء على البر قول السَّرَقُسْطِي على لسان السدوسي لمخاطبيه: "**هَلْ سُدَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَسَالِكُ، أو طُوِيَتْ دُونَكُم الْمَمَالِكُ؟ أمَا لَكُمْ في قَصْدِ الْمُلُوكِ مَتْجَرٌ رَابِحٌ، ومَغَابِقُ مِنَ الْعَيشِ ومَصَابِحُ؟ تَتَقَيَّلُونَ ظِلالَ الوَجَاهَةِ والتَّكريمِ، وتَتَقاضَوْنَ أَنْصَفَ مُداينٍ وغَرِيم... أَنَّى ودُوْنَكُمْ مِنَ الأَرْضِ مَذْهَبٌ عَرِيْضٌ، وجَنَىً مِنْ فَضْلِ اللهِ غَرِيْضٌ، ورَحْمَةٌ تُلْبَسُ، وجَذْوَةٌ تُقْتَبَسُ**".

بعد أن بيَّن الكاتب مخاطر ركوب البحر شفعه بالقول السابق، الذي أبرز فيه مزايا البر، فحمل بذلك مخاطبيه على المفاضلة بين سبيلين؛ أحدهما للهلاك والآخر للنجاة، ولا يخفى أن هذه المفاضلة فيها نوع من التوجيه نحو اختيار سبيل النجاة (سبيل البر)، لا سيما مع كثرة هذه المزايا التي ذكرها الكاتب له، وتوسل إلى إقناعنا بها في نصه بأكثر من استفهام خرج عن غرضه الرئيس، وببعض الأفعال المضارعة التي أفادت تجدد خيرات البر وكثرتها وتنوع مصادرها.

وحين أراد الكاتب أن يرفع من قيمة البحر صنع عكس ما صنع سابقًا؛ إذ شفع كلامه عن منافع البحر وفوائد ركوبه بذمه البر وقوله عنه: "**وإِيَّاكُمْ والطُّرُقَ الْهَاتِكَةَ الْفَاضِحَةَ، فَإِنَّهَا تُخْلِقُ الأَبْدَانَ، وتُذِيْلُ الْأَرْدَانَ، وتَقْبِضُ الجِلْدَةَ، وتُوْرِثُ البِلْدَةَ، وتَصْلِدُ الزِّنَادَ، وتَبْعَثُ الْعِنَادَ، وتُلْبِسُ الضَّرْعَ، وتُغِصُّ الْجُرَعَ، طَرِيقٌ كَثُرَ سالِكُهُ، واسْتَطَالَ مَالِكُهُ، واتَّصلتْ شُعَبُهُ، وكَثُرَ نَصَبُهُ وتَعَبُهُ، وقَلِيْبٌ غَزُرَ مُمْتَاحُهُ، ونَضَبَ مُتَاحُهُ، وكُدِّرَتْ سِجَالُهُ، وضَاقَ عَلَى الْحُرِّ مَجَالُهُ**". كثرةُ العطف بين الجمل في الفقرة السابقة يشي بأن الكاتب قد استفرغ جهده في حشد قدر كبير من المساوئ التي تصدف

مخاطبيه عن السير في البر، على أن من يمعن النظر يلفاه يكرر معانيه، حاصرًا هذه المساوئ في النصب البدني وبعض الخلال الخلقية السيئة، كذلك فإن استعماله عددًا من الصور المجازية أعانته على مفارقة الواقع إلى حد ما، ورفعت عنه مئونة تقديم الدلائل المادية على عاقبة الضرب في الأرض، مما قد يوقعه في شراك التناقض الصارخ في كلامه عن هذا البر.

خامسًا: حجة العاطفة

بالرغم من أن السَّرَقُسْطِي قد أكثر في مقامته البحرية من استعمال الحجج شبه المنطقية، والحجج المؤسَّسة على بنية الواقع والمؤسِّسة له، فإنه أيضًا قد لجأ – ولكن في نطاق ضيق – إلى استعمال حجة العاطفة، ولم ينس نصيبه منها؛ لأنها "تكون في حالات كثيرة ذات أثر فعال، حيث تستعمل على أنها تقنية سوفسطائية خادعة تظهر الحجة الضعيفة في مظهر الحجة القوية"(١)، ولأن طبيعة بناء المقامة نفسها مما يسوغ توظيف هذه الحجة؛ إذ لا يستعجل البطل فيها المواجهة ولا يبادر إلى الاستعلاء وتضخيم الأنا، وإنما يتظاهر بالضعف ويقصد إلى مخاطبة الوجدان وتلمس من يقيل عثرته، ويعينه على نوائب الدهر، سواء دلَّ على هذا مظهره، أو أخبر عنه هو بنفسه، أو من خلال شخص آخر ممثل في الحكي، كما صنع الغلام في المقامة البحرية.

لقد دافع الغلام عن بطل المقامة البحرية، وكان مما جاء في كلامه: "**يا قَوْمُ مَالَكُمْ ومَالَه مَزَّقْتُمْ أَسْمَالَهُ، وأَسَأْتُمْ احْتِمَالَهُ، وقَبَّحْتُمْ جَمَالَهُ، لَعَلَّ دَهْرًا عَظَّهُ، أو فَادِحًا كَظَّهُ، أنا لَهُ ضَامِنٌ، وعَلَى ما شَرَطْتُمُوهُ لَهُ آمِنٌ، قَدِّمُوا إِلَيْهِ مَا قَدَّمْتُم، وخُذُونِي بِمَا أَبْرَمْتُمُوهُ مَعَهُ وأَحْكَمْتُمْ**".

(١) حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحِجَاج، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع٢، مج٤٠، ٢٠١١م، ص٢٥١.

وظف الكاتب شخصية الغلام وأخفى صلتها ببطل المقامة البحرية بغية مساعدته على حبك خدعته وإنجاح حيلته[١]، فلم يكشف عن كونه ابنًا له إلا في نهاية هذا النص[٢]، ومن براعته أيضًا في بناء شخصية هذا الغلام فنيًّا وجعلها أكثر اتساقًا وإقناعًا للقارئ أنه قبل أن يُنطقها بالقول السابق وصف صاحبها – على لسان الراوي – بأنه "**فتىً تُخْبِرُ عَنْهُ حَالٌ مَكِينَةٌ، ويَلُوحُ عَلَيْهِ هُدَىً وسَكِينَةٌ**" فالحال المكينة التي مُدح به هنا هي التي قوت حجته وخولته لأن ينتقد القوم الذين تخوفوا من مخاتلة الشيخ السدوسي لهم، وهي التي رشحته أيضًا لأن يكون ضامنًا له، وأما ما لاح عليه من هدى وسكينة، فهي التي جعلته يبرر موقف هذا الشيخ، ويلتمس له الأعذار بغية حمل هؤلاء القوم على التعاطف معه وتصديقه.

(١) من الوسائل التي اتخذها الكاتب لنفي هذه الصلة أنه لمَّا صرح بعض مستمعي السدوسي بارتيابهم منه وخوفهم من مكره وخداعه لهم، رد عليهم وحاول أن يدرأ عن نفسه هذه التهمة، وكان من الحجج التي ساقها في هذا الصدد أنه ليس له في الصقع الذي هم فيه حميل ولا ضمين.

(٢) تبين هذا من مخاطبة السدوسي السائبَ بشأن هذا الغلام قائلًا: "**هذا نَثْرَتِي ولا يُبَالِي عَثْرَتِي، ما زلتُ أَنْقُلُه من حَالٍ إلى حَالٍ، وأُدَرِّجُهُ وأُدَرِّبُهُ في هذه الحِرْفَةِ وأُخَرِّجُهُ، حتى بَرَعَ فيها بُرُوْعِي، والتقى عليها رُوْعُهُ ورُوْعِي**".

سادسًا: حجة التبادل

حجة التبادل من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد المنطق، وهي تستلهم فاعليتها من تطبيق فكرة العدل والاشتراك في الحكم والمعالجة الواحدة للشيئين المتماثلين أو للعناصر المنتمية لصنف واحد(١)، ولأن استعمال هذه الحجة قد يفضي ببطل المقامة البحرية إلى الإعلان عن نفسه وطلب العطاء صراحة، وهو ما يتنافى مع سعيه الحثيث إلى استقطاب جمهوره وخداعهم، فإنه لهذا قد أجرى هذه الحجة – كما فعل في الحجة العاطفية لتشابه الأسباب – على لسان شخصية ثانوية، هي شخصية الغلام، الذي ظهر أولًا ضامنًا لهذا البطل، ثم عاد للظهور مرة ثانية، وجاء على لسانه: "**مِثْلِي لا يَخِيسُ ولا يَمِينُ، أَيْنَ مَا أَعْطَيْتُمْ به صَفْقَةَ الأيمانِ، وأَكَّدْتُمُوهُ بِمُخْرَجَاتِ الْأَيْمَانِ، هَا هُوَ قَدْ غَالَطَ العِيانَ، وصَرفَ البَيَانَ، وصَرَفَ الإجْمَاعَ، وعَطَفَ الأَزْمَاعَ، ونَظَمَ الشَّتَاتَ، ووَصَلَ البَتَاتَ، وجَبَرَ ما صَدَعَ، وأَخَذَ ما وَدَعَ، وقد وَفَّى بعَهْدِه فأوفُوا بالعُهُوْدِ، واللهُ أَكْرمُ شَاهدٍ ومَشْهودٍ**".

وجه الغلام كلامه في الفقرة السابقة لأصحاب السفن الذين وعدوا السدوسي بأن يحبوه ويغدقوا عليه الأموال والعطايا، إن هو نجح فيما قطعه على نفسه من جعل الناس يقبلون على ركوب البحر بعد أن كان قد سبق له أن كرههم فيه، فلما وفَّى بوعده معهم لجأ هذا الغلام لحجة التبادل؛ حيث حث طرفي المقايضة السابقين على استعمال العدل المتمثل في وفاء كليهما بالعهد والوعد الذي أبرماه.

تتجلى براعة الكاتب/ الغلام في الفقرة السابقة في تحقيق عملية التساند والتعاضد بين الحجج؛ إذ لم يقدم مباشرة على دعوة أصحاب السفن إلى تحقيق العدل، ولكنه حاول إقناعهم وحملهم عليه باستعماله في مستهل كلامه حجة السلطة؛ إذ أطرى نفسه نافيًا عنها الكذب، ثم ذكَّرهم بأن وعدهم السدوسي كان موكدًا بالأيمان التي تترتب

---

(١) ينظر: عبد الله صولة: الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ص٣٢٨، وسامية الدريدي: الحِجَاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص ٢٠١.

على الحنث بها عواقب وخيمة، ومن صور هذا التعاضد أيضًا تعظيم هذا الكاتب/ الغلام صنيع السدوسي والجهد الذي بذله بغية رد الأمور إلى نصابها الطبيعي.

وفي ختام هذا البحث أثبت بعض النتائج التي تم التوصل إليها، وقد جاءت على النحو الآتي:

١- السَّرَقُسْطِي أحد الأدباء الأندلسيين الذين شُغفوا باستلهام الطبيعة، وكان من مظاهر استدعائه لها أن اتخذ بعض عناصرها موضوعًا لبعض مقاماته التي شُهر بها.

٢- بالرغم من أن البحر هو موضوع المقامة البحرية الرئيس، فإن صاحبها لم يجعل بطلها يتطرق إلى وصفه وصفًا مباشرًا، ولم يتوحد معه كذلك شعوريًّا، وإنما تبنى منه موقفًا متناقضًا، يخدم حيلته وهدفه في الوصول إلى الأموال والعطايا.

٣- كانت بلاغة بطل المقامة البحرية وإجادته نظم الأشعار وثقافته الواسعة هي مؤهلاته وأدواته التي توسل بها للتأثير في جمهوره وتوجيه سلوكهم.

٤- استخدم السَّرَقُسْطِي في المقامة البحرية أنواعًا مختلفة من الحجج، أتى بعضها في إهاب بعض؛ فحصل بينها بذلك نوع من التساند والتعاضد؛ مما زاد من نجاعتها وقدرتها على الإقناع.

٥- يعد الاستهلال عنصرًا وظيفيًّا فاعلًا في المقامة البحرية؛ إذ توطدت صلته البنيوية والمعنوية بمتنها؛ ففي رحمه تخلقت عناصر سردية هامة، فتحت مجال القص، واستمر حضورها وتأثيرها في الأحداث اللاحقة، كما أُفيد منها في تأصيل بعض الحجج.

٦- كان للأشخاص في المقامة البحرية دور فاعل في تحريك السرد وتناميه، وكذلك في الاحتجاج بسلطتها الإيجابية والسلبية لحمل المتلقي الخاص وربما الكوني على الإذعان والاقتناع بما يقال.

٧- كون الحجة البراغماتية تضطلع ببيان إيجابيات الشيء وسلبياته؛ فقد خوّل لها هذا أن تكون أنجع الحجج وأكثرها استخدامًا في المقامة البحرية التي رسم فيها بطلها للبحر صورتين متباينتين، احتاج إلى إقناع جمهوره بقبولهما في الحالين.

٨- لم يكن لحجة العاطفة حضور كبير في المقامة البحرية؛ لأن طبيعة الموقف أو

المشهد في القصة المنسوجة فيها جعلت كاتبها يعنى بالحجج التي تخاطب العقل، وتركز على الأشياء الواقعية التي يلمسها الجمهور.

٩- حجة التبادل تقوم على تطبيق قاعدة العدل بين الشيئين المتماثلين؛ وهي بهذا قد تكشف عما يتغيا بطل المقامة إخفاءه؛ ومن ثم انصراف جمهوره عنه؛ لذا ألفينا السَّرَقُسْطِي لا يكثر من استعمالها في مقامته، وعندما وظفها – في أضيق نطاق – لم ينطق بها بطلها، وإنما أجراها على لسان إحدى الشخصيات الثانوية، التي لا تظهر صلتها المباشرة بهذا البطل.

المصادر والمراجع

١. **ابن الأثير**: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.

٢. **الألوسي**: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣. **أوليفيي روبول**: مدخل إلى الخطابة، ترجمة: رضوان العصبة، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٧.

٤. **ابن بشكوال**: الصلة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.

٥. **جودت الركابي**: في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٦م.

٦. **جيرالد برنس**: مقدمة لدراسة المروي عليه، ترجمة: علي عفيفي، مجلة فصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج١٢، ع٢، ١٩٩٣م.

٧. **حاتم عبيد**: منزلة العواطف في نظريات الحِجَاج، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع٢، مج٤٠، ٢٠١١م.

٨. **حازم القرطاجني**: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي.

٩. **حسن عباس**: فن المقامات في القرن السادس، دار المعارف، ١٩٨٦م.

١٠. **الرازي**: مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط١.

١١. **سامية الدريدي**: الحِجَاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط٢، ٢٠١١م.

١٢. **السَّرَقُسْطِي**: المقامات اللزومية، تحقيق: حسن الوراكلي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط٢، ٢٠٠٦م.

١٣. **السيوطي**: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٩٦٤م.

١٤. **شوقي ضيف:** عصر الدول والإمارات (الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٩م.

١٥. **شوقي ضيف:** المقامة، دار المعارف، القاهرة، ط٣.

١٦. **الطاهر بن عاشور:** التحرير والتحبير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٧. **الطبري:** جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

١٨. **طه عبد الرحمن:** في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٠.

١٩. **عبد الله صولة:** الحِجَاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٠. **عبد الله صولة:** الحِجَاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحِجَاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب: أهم نظريات الحِجَاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب منوبة.

٢١. **علي بن محمد:** النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م.

٢٢. **فيليب بروطون:** الحِجَاج في التواصل، ترجمة: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م.

٢٣. **فيليب بروتون وجيل جوتييه:** تاريخ نظريات الحِجَاج، ترجمة: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠١١م.

٢٤. **الكلاعي:** إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.

٢٥. **لسان الدين بن الخطيب:** الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.

٢٦. **مالك بن أنس:** الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٧. **محمد العمري:** في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٢م.

٢٨. **محمد مشبال:** البلاغة والسرد جدل التصوير والحِجَاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ٢٠١٠م.

٢٩. **محمد الهادي الطرابلسي:** مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطي، مجلة حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب بجامعة تونس، ع٢٨، ١٩٨٨م.

٣٠. **المقري:** نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٣١. **ابن منظور:** لسان العرب، دار صادر، بيروت.

٣٢. **موسى سليمان:** الأدب القصصي عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٤، ١٩٦٩م.

٣٣. **الميداني:** مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

٣٤. **ابن هشام الأنصاري:** مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩١م.

٣٥. **ابن وهب الكاتب:** البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٦٩م.

٣٦. **ياقوت الحموي:** معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

Sources and references

١. Ibn al-Atheer: The Proverb in the Literature of the Writer and Poet, edited by: Ahmed al-Hofi and Badawi Tabana, Dar Nahdet Misr, Cairo.

٢. Al-Alusi: The Spirit of Meanings in the Interpretation of the Great Qur'an and the Seven Mathanis, Dar Revival of Arab Heritage, Beirut.

٣. Olivier RuPaul: An Introduction to Public Speaking, translated by: Radwan Al-Asba, Africa East, Morocco, 2017.

٤. Ibn Bashkwal: The Connection, edited by: Ibrahim Al-Ebiary, Dar Al-Kutub Al-Misriyah, Cairo, 1st edition, 1989 AD.

٥. Jawdat Al-Rikabi: On Andalusian Literature, Dar Al-Maaref in Egypt, 2nd edition, 1966 AD.

٦. Gerald Prince: An Introduction to the Study of the Narrated, Translated by: Ali Afifi, Fosool Magazine. Egyptian General Book Authority, Cairo, vol. 12, no. 2, 1993 AD.

٧. Hatem Obaid: The status of emotions in the theories of pilgrims, Alam Al-Fikr Magazine, Kuwait, No. 2, Volume 40, 2011 AD.

٨. Hazem Al-Qartajani: Minhaj al-Balagha' and Siraj al-Adabā', edited by: Muhammad al-Habib bin al-Khawja, Dar al-Gharb al-Islami.

٩. Hassan Abbas: The Art of Maqamat in the Sixth Century, Dar Al-Maaref, 1986 AD.

١٠. Al-Razi: Keys to the Unseen, Dar Al-Fikr, 1st edition.

١١. Samia Al-Daridi: Al-Hajjaj in Arabic Poetry, Its Structure and Methods, Modern World of Books, Jordan, 2nd edition, 2011 AD.

١٢. Al-Saraqusti: The Immanent Maqamat, edited by: Hassan Al-Waraqli, The Modern World of Books, Irbid, 2nd edition, 2006 AD.

١٣. Al-Suyuti: In order to be aware of the classes of linguists and grammarians, edited by: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Issa Al-Babi Al-Halabi and Partners Press, 1st edition, 1964 AD.

١٤. Shawqi Deif: The Age of States and Emirates (Andalusia), Dar Al-Maaref, Cairo, 1989 AD.

١٥. Shawqi Deif: Al-Maqama, Dar Al-Maaref, Cairo, 3rd edition.

١٦. Al-Taher Bin Ashour: Editing and Writing, Tunisian Publishing House, Tunisia, 1984 AD.

١٧. Al-Tabari: Jami' al-Bayan on the Interpretation of the Qur'an, edited by: Abdullah bin Abdul Mohsen al-Turki, Dar Hijr, Cairo, 1st edition, 2001 AD.

١٨. Taha Abdel Rahman: On the Origins of Dialogue and the Renewal of the Science of Theology, Arab Cultural Center, Casablanca, 2nd edition, 2000.

١٩. Abdullah Sawla: Al-Hajjaj in the Qur'an through its most important stylistic characteristics, Dar Al-Farabi, Beirut, 1st edition, 2001 AD.

٢٠. Abdullah Sawla: Pilgrims: Its frameworks, starting points, and techniques through "A Workbook on Pilgrims - The New Rhetoric of Parliament and Titicah," within the book: The Most Important Theories of Pilgrims in Western Traditions from Aristotle to Today, Supervised by: Hamadi Samoud, University of Letters, Arts and Human Sciences, Tunisia, Faculty of Arts, Manouba.

٢١. Ali bin Muhammad: Andalusian literary prose in the fifth century: its contents and forms, Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut, Lebanon, 1st edition, 1990 AD.

٢٢. Philip Broton: Pilgrims in Communication, translated by: Muhammad Mishbal and Abdel Wahed Al-Tahami Al-Alami, National Center for Translation, Cairo, 2013 AD.

٢٣. Philippe Breton and Gilles Gauthier: The History of Pilgrimage Theories, translated by: Muhammad Saleh Nahi Al-Ghamdi, Center for Scientific Publishing, King Abdulaziz University, Jeddah, Kingdom of Saudi Arabia, 1st edition, 2011 AD.

٢٤. Al-Kala'i: Ahkam Manat al-Salaam, edited by: Muhammad Radwan Al-Daya, House of Culture, Beirut, 1966 AD.

٢٥. Lisan al-Din Ibn al-Khatib: The Briefing in Granada News, edited by: Yusef Ali al-Taweel, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Lebanon, 1st edition, 2003 AD.

٢٦. Malik bin Anas: Al-Muwatta, edited by: Muhammad Fouad Abdel-Baqi, Arab Heritage Revival House, Beirut, 1985 AD.

٢٧. Muhammad Al-Omari: On the Rhetoric of Persuasive Discourse, a theoretical and applied introduction to the study of Arabic rhetoric, East Africa, Casablanca, 2nd edition, 2002 AD.

٢٨. Muhammad Meshbal: Rhetoric and Narration, The Controversy of Photography and Pilgrimage in Al-Jahiz News, Publications of the Faculty of Arts, Abdel Malik Al-Saadi University, Tetouan, 2010 AD.

٢٩. Muhammad al-Hadi al-Tarabulsi: An Introduction to the Analysis of the Immanent Maqamat by al-Saraqusti, Journal of the Annals of the Tunisian University, Faculty of Arts, University of Tunis, No. 28, 1988 AD.

٣٠. Al-Maqri: Nafah al-Tayyib from the Fresh Branch of Andalusia, edited by: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, 1968 AD.

٣١. Ibn Manzur: Lisan al-Arab, Dar Sader, Beirut.

٣٢. Musa Suleiman: Narrative Literature among the Arabs, Lebanese Book House, Beirut, 4th edition, 1969 AD.

٣٣. Al-Maidani: Complex of Proverbs, edited by: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Dar Al-Jeel, Beirut, 2nd edition, 1987 AD.

.٣٤Ibn Hisham Al-Ansari: Mughni Al-Labib from the Books of Arabs, edited by: Muhammad Muhyiddin Abdel Hamid, Al-Maktabah Al-Asriyah, Beirut, 1991 AD.
.٣٥Ibn Wahb al-Katib: The proof in the faces of the statement, edited by: Hifni Muhammad Sharaf, Al-Resala Press, Cairo, 1969 AD.
.٣٦Yaqut Al-Hamawi: Dictionary of Countries, Dar Sader, Beirut.